سيمياء النخلــة
فى شعر محمد الخطراوي

دكتور
عبد الرحمن بن دخيل ربّه المطرّفى
الأستاذ المشارك فى قسم الأدب والبلاغة
الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة

الملخـــص

يروم هذا البحث استقراء المواطن التي تسلّلت إليها النّخلة ـ بصفتها دالاً لغوياً ـ في دواوين الشاعر السعودي محمّد الخطراوي، ودراستها دراسة تهدف إلى كشف مدلولاتها، وتفاعلاتها العميقة، وربطها بسياقاتها النصّيّة والثقافيّة، وصولاً إلى تحديد تشكّلاتها وعلاماتها السيميائية في تجربة الشاعر. وبالرّغم من كثرة الدراسات والبحوث التي تناولت وجود النّخلة في الشعر العربي: قديمه وحديثه، إلاّ أنّ الباحث لحظ ندرة هذه الدّراسات على مستوى الأدب السعوديّ، عدا مقالات منثورة في الصّحف والمجلاّت، لا تمثّل دراسات عميقة ، وإلاّ ما كان من محاضرة نافعة ألقاها الأستاذ الدكتور عبدالمحسن القحطاني؛ في نادي القصيم الأدبي؛ بعنوان (النخلة الرمز في الشعر السعودي) أبان فيها مستويات الرمز بالنخلة لدى الشعراء السعوديين، ضارباً أمثلة شعريّة محدودة، داعياً إلى مزيد من الدراسات في هذا الصّدد.

واتّكأ البحث على المنهج السيميائيّ عدّةً للتحليل والتفسير؛ لأنّه أنجع المناهج في مثل هذا المقام .

وخلص البحث إلى نتائج عدّة ، من أظهرها:أنّ النخلة مثّلت لدى الخطراوي نظاماً من العلامات (رمزاً، ومؤشّراً، وأيقونة) للوطن المعطاء، وللإنسان الخيّر، وللقيم الإنسانيّة النّبيلة؛ كالثّبات والعطاء والنّماء.

الكلمات المفتاحية: النخلة، مُحَّمد الخطراوي، السيميائية، الدلالة، الرمز.

دكتور
عبدالرحمن المطرّفي
قسم الأدب والبلاغة- الجامعة الإسلامية
المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية
Alofi1431@gmail.com

Abstract

The research dealt with describing the moral values of Ibn al-Rumi, and how they varied according to the creativity and genius of the poet. We do not mean morals here in a purely religious sense, but they were dealt with from the perspective of poetry, because the aim of the study is to show this aspect and defend the poet through his poetry against those who put him down. In the circle of melancholy and satire, we shed light on the moral meaning and how to address it, present it, and search for it within the collection. I used the descriptive and analytical method, where I counted this phenomenon while explaining how he was able to employ his poetic creativity in directing attention towards positive values in society, and the extent of their impact on the individual in particular. And on society in general, after the mixing of many different social groups, and the entry of many non-Arab elements, and the research acquires special importance as it is a different study and different from what we are accustomed to and accustomed to when talking about Ibn al-Rumi, as it contradicted what many writers who wrote about Ibn al-Rumi agreed upon. The poet, and placed him in a closed circle drawn by a pessimistic view, filled with darkness, and pushed towards the appearance of disgusting satire, in order to shed light on the bright side of his life, where the morals and values that, although he had employed them to serve his personal purposes, he - without a doubt - hoped for the life he hoped for. For his society, scientific research either changes a concept or confirms a belief.

Keywords: Moral values, ethics, Ibn al-Rumi’s poetry, the Abbasid era.

Dr
Shaima Bakri
Department of Arabic Language,
Faculty of Arts, Benha University,
Arab Republic of Egypt
shaimaamohamed@fart.bu.edu.eg

مقدمـــة

الحمد لله ، والصّلاة والسّلام على رسول الله .

لفت نظري وأنا أقرأ أشعار الدكتور محمد العيد الخطراوي[1] ـ منذ سنوات خلت ـ كثرة حضور النخلة في أشعاره ، وتفنّنه في استدعائها للتعبير عن أفكاره ومعانيه، وليس حضورها حضور موضوعٍ أو وصفٍ، بل كانت تأتي أداة فنّيّة تعبر عمّا يريد من معانٍ ورموز وإيحاءات .

ولا غرو فالشاعر عاش في المدينة المنوّرة الفيحاء ؛ التي تتوشّح بالنّخيل منذ القدم؛ على روابي قباء والعوالي، وفي عرصات العيون، وعلى ضفاف العقيق. فعاش أهلها بصحبة النّخيل صباح مساء، وجاد عليهم بالخير والعطاء .

---

(١) ولد في المدينة المنورة سنة ١٣٥٤هـ.
حصل على ليسانس في الشريعة ، من جامعة الزيتونة بتونس ، عام ١٣٧٤هـ ، والدكتوراه في الأدب والنقد من الجامعة الأزهرية بالقاهرة عام ١٤٠٠هـ . عمل مدرّساً بالتعليم العام منذ عام ١٣٧٥، وبعد حصوله على الدكتوراه عين بوظيفة أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ثم وكيلاً لعمادة شؤون المكتبات بها من عام ١٤٠٠ – ١٤٠٢ه ، ثمّ انتقل للعمل عضو هيئة تدريس بكلية التربية بالمدينة لأكثر من ست سنوات ، حتى أحيل إلى التقاعد .
من مؤلفاته المطبوعة: الرائد في علم الفرائض، شعراء من أرض عبقر – دراسة لمجموعة من الشعراء السعوديين (جزءان) ، شعر الحرب في الجاهلية بين الأوس والخزرج (دراسة) ، المدينة المنورة في العصر الجاهلي - دراسة للحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية (دراسة)، المدينة المنورة في العصر الجاهلي – الحياة الأدبية (دراسة) والمدينة المنورة في صدر الإسلام – الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية (دراسة) وغيرها من الدراسات والتحقيقات .
أما دواوينه الشعرية فهي: أمجاد الرياض (ملحمة شعرية في حياة الملك عبد العزيز) غناء الجرح، همسات في أذن الليل، حروف من دفتر الأشواق ، تفاصيل في خارطة الطقس، مرافئ الأمل، تأويل ما حدث، أسئلة الرحيل، على عتبات المحبوبة ، ثرثرة على ضفاف العقيق.
والأديب محمد العيد الخطراوي عضو أسرة الوادي المبارك ، وعضو مؤسس لنادي المدينة المنورة الأدبي .
توفي رحمه الله بالمدينة يوم ١٤٣٣/٨/١٦هـ . جريدة الرياض ، العدد ١٦٠٨٣ في ١٦شعبان ١٤٣٣هـ.

وقد بدا لي أن أستقري المواطن التي تسلّلت إليها النّخلة في دواوين الشاعر، وأدرسها دراسة تهدف إلى كشف مدلولاتها، وإيحاءاتها، وربطها بسياقاتها النصّيّة والثقافيّة، وصولاً إلى تحديد تشكّلات النخلة الفنّيّة في تجربة الخطراوي الشعريّة.

وبالرّغم من كثرة الدراسات والبحوث التي تناولت وجود النّخلة في الشعر العربي: قديمه وحديثه، إلاّ أنّ الباحث لحظ ندرة هذه الدّراسات على مستوى الأدب السعوديّ، عدا مقالات منثورة في الصّحف والمجلاّت، لا تمثّل دراسات عميقة، وإلاّ ما كان من محاضرة نافعة ألقاها الأستاذ الدكتور عبدالمحسن القحطاني؛ في نادي القصيم الأدبي[1]؛ بعنوان (النخلة الرمز في الشعر السعودي) أبان فيها مستويات الرمز بالنخلة لدى الشعراء السعوديين، ضارباً أمثلة شعريّة محدودة ، داعياً إلى مزيد من الدراسات في هذا الصّدد.

وسأتّخذ في هذه الدّراسة المنهج السيميائيّ عدّةً للتحليل والتفسير؛ لأنّه ـ في نظري ـ أولى المناهج النقديّة في مثل هذا المقام .

راجياً ربي تعالى أن أكون وفّقت في تقديم دراسة نافعة في النّقد الأدبيّ التّطبيقي، وأن تكون مفتاح خير لدراسات أخرى مشابهة في تجارب شعرائنا ؛ السعوديين بخاصّة، والعرب بعامّة.

وبالله التوفيق ، ومنه العون

(١) في المحرم من سنة ١٤٣٥هـ .

تمهيد

أ ـ النخلة في الشعر العربي

صاحب العربيّ النّخلة في صحرائه منذ وطئت قدماه تلك الصّحراء، فكانت تلك النّخلة له كالأمّ تحنو عليه، وتمدّه بالغذاء والدّواء، ودوحةً ظليلة تقيه الحرّ والسّموم، وشكّلت بيته وأثاثه بجذوعها وكربها وليفها وجريدها .

لقد رأى العربيّ في النخلة بركةً موفورة في كلّ أجزائها، ومن أجل ذلك ارتبطت في ذهنه رمزاً للحياة والعطاء والنّماء، والثّبات والشّموخ، والجمال والشّرف، ورمزاً للتّمسّك بالقيم الرّوحيّة والاجتماعيّة والوطنيّة في الظّروف الصّعبة.

أحبّ الشّاعر العربيّ النّخلة حبّاً جمّاً تغلغل في أعماق قلبه إذ كانت رفيقته في تلك الصّحراء القاحلة ، فشكّلت جزءاً كبيراً من حياته، وتجاربه، وحكمه، وأمثاله، ومعجمه، وأدبه[١] .

حضرت النّخلة في الشّعر العربيّ منذ فجره الأوّل، عند الشّعراء الجاهليين كامرئ القيس الّذي رأى في قنو النّخلة المحمّل بالثمر صورة لشَعر محبوبته الكثيف ، فقال[٢] :

وفـرعٍ يـزين المـتنَ أسـودَ فـاحمٍ أثيـثٍ كقنـو النّخلـة المتعثكـلِ

(١) وفي ذلك ألّف العلماء كتباً ورسائل عدّة ، منها : النخل للأصمعي ، وكتاب النخل للسجستاني، وأدب النخل: استقراء في كتب الأدب والمعاجم للدكتور إبراهيم السامرائي.

(٢) ديوان امرئ القيس ، بتحقيق أبو الفضل ، ص ٣٠.

ويرى زهير أنّ النّخل شجر شريف لا ينبت إلاّ في الأماكن الطّيّبة، فيقول[١] :

وهـل يُنبـتُ الخطـيَّ إلا وشـيجه وتغرس إلا فـي منابتهـا النّخـلُ

وفي العصر الأمويّ تقع عين عبدالرّحمن الدّاخل في الأندلس على نخلة هناك ، فتشعل الحنينَ في قلبه إلى موطنه وأهله في الشّرق ، بل يرى فيها معادلاً لنفسه في الغربة والنّأي ! يقول[٢] :

تبـدَّتْ لنـا وسْـطَ الرُّصافـــة نخلـــةٌ تناءتْ بأرضِ الغرب عن بلد النّخلِ
فقلـتُ شـبيهي فـي التغـرُّب والنّـــوى وطولِ التَّنائي عن بَنِيَّ وعن أهلي
نشـأتِ بـأرض أنـتِ فيهـــا غريبـــةٌ فمثْلُكِ في الإقصاءِ والمُنْتأى مثلي
سقتكِ غوادي المُزْن من صَوبها الّذي يسِحُّ وتستمري السِّماكَين بالوَبل

ويصف أبو العلاء المعرّي النّخيل بأنه أشرف الشّجر، فيقول عن نخيل العراق[٣]:

وردنـا مـاءَ دجلـــةَ خيـرَ مـــاءٍ وزرنا أشرفَ الشّـجـرِ النّخيـلا

وفي العصر الحديث يكثر ذكر النّخلة عند الشّعراء، ولعلّ من أشهر مَن تغنّى بالنّخيل أمير الشّعراء أحمد شوقي؛ إذ يقول[٤] :

أرى شـــجراً فـي السّماء احتجـبْ وشـــقّ العَنـانَ بمَـرْأى عَجـبْ

(١) ديوان زهير ، بشرح ثعلب ، ص ٦٧.
(٢) شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، للسيد أحمد عمارة ، ص ٢٧٨.
(٣) سقط الزند ، ص ١٦٢ .
(٤) الشوقيات ٥٤/٤.

مـــآذنُ قامـــت هـــنا أو هـــناكَ ظواهرهـــا درجٌ مـــن شـذَب

إلى أن يقول :

أهـــذا هو النّخلُ مـــلكُ الريـاضِ أميرُ الحقولِ، عـروسُ العزب؟
طعـــامُ الفقيـــرِ، وحَلـوَى الغَنـيّ وزادُ المســـافِـر والمُغْتَـرِب؟
فيـا نخلـــةَ الرّملِ، لـــم تبخلـــي ولا قصَّـرتْ نخـلاتُ التّـرب

ثمّ يستغرب من قلّة الشّعر العربيّ في النّخلة :

وأعجبُ: كيـــف طـــوى ذكركنَّ ولم يحتفـلْ شـــعراءُ العرب؟!
أليـــس حـــراماً خلـــوُّ القصـــا ئدِ من وصفكنّ،وعطلُ الكتب؟!

وجلّ شعراء العراق ـ الّتي تسمّى بأرض السّواد ؛ لكثرة نخيلها ـ كانوا متعلّقين بالنّخيل، فيحضر في أشعارهم حقيقة ورمزاً، كالجواهري، والسّيّاب، وعبدالرّزّاق عبدالواحد؛ الّذي يفتخر بالمرأة العراقية فيصفها بالصّبر والثّبات على الشدائد والتّحلّي بالعفّة والحيـاء على مـرّ الأيام، فيقول(١) :

يا أخـت نخل العراق ألا تميل بـه ريح ولكـن دلالا يلعـب السعف
حـلاوة التمر أو أحلى وجوهرها مثـل النـواة عليه السن تنقصف

وبالمثل ترى شعراء الجزيرة العربية والخليج كثيراً ما يستدعون النخلة في شعرهم ، ويتّخذونها قناعاً لتجاربهم المتنوّعة ؛ مكوّنة أنسجة معنويّة ودلاليّة لا تقلّ تشابكاً ونفعاً عمّا تكوّنه هذه الشجرة الشريفة في حياتهم ومعاشهم.

(١) الأعمال الكاملة للشاعر ٦٣/١.

ومن المتوقّع أن تكون النخلة أكثر حضوراً في تجارب الشعراء الذين يعيشون في مناطق تكثر بها واحات النخيل وبساتينها؛ كالأحساء، والقصيم ، واليمامة، والمدينة المنوّرة .

ب ـ السيميائيّة :

السيميائية: مصدر صناعي مأخوذ من السيمياء ، وتعني العلامة، فقد جاء في المعاجم العربيّة : السُّومة، والسِّيمة ، والسِّيما ، والسِّيمياء : العلامةُ[١].

والسيميائية ـ في النقد الأدبي ـ مصطلح معرّب عن (السيميولوجيا) لدى دي سوسير، أو (السيميوطيقا) لدى تشارلز بيرس، وتعني لديهم علم العلامات أو دراسة العلامات (الإشارات) أي البحث في علاقة الدوال بالمدلولات عبر وسائط الثقافة والسياق[٢].

والسيميائيّات متعدّدة، وليست تياراً واحداً ، ولكنّها ـ في جميع حالتها ـ هي "بحث في المعنى، لا من حيث أصوله وجوهره ، بل من حيث انبثاقه عن عمليّات التّنصيص المتعدّدة "[٣].

وعليه يمكننا القول إنّ أهمّ ما تعنى به السيميائيات هو (السيرورة المؤدّية إلى إنتاج الدّلالة) أي ما يُطلق عليه في الاصطلاح السيميائي : السيميوز[٤].

والسيميائيّة شديدة الصلة بالبنيويّة ؛ إذ البنيويّة نفسها منهج منتظم لدراسة الأنظمة الإشاريّة المختلفة في الثقافة العامّة[٥].

---

(١) القاموس المحيط (سوم).
(٢) دليل الناقد الأدبي ، للرويلي والبازعي ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٣) السيميائيات : مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، ص ١٢ .
(٤) السابق ، ص ٣٣.
(٥) دليل الناقد الأدبي ١٧٨ .

والحقّ أنّ لدى علمائنا الأوائل بحوثاً في الدلالة والتأويل والرمز ما يشبه معطيات السيميائيّة إلى حدّ كبير . فقد تحدّث حازم القرطاجنّي عن وجود المعاني، فقال : "المعاني لها حقائق موجودة في الأعيان ولها صور موجودة في الأذهان، ولها من جهة ما يدل على تلك الصور من الألفاظ وجود في الأفهام، ولها من جهة ما يدل على تلك الألفاظ من الخط ما يقيم صور الألفاظ وصور ما دلت عليه في الأفهام والأذهان"(١).

وهو وصف دقيق للعلاقة ما بين الدّوال ومدلولاتها، وتحوّلاتها ، لا يختلف كثيراً عمّا قرّره سوسير وغيره.

(١) منهاج البلغاء ، ص ١٩ .

المبحث الأوّل : النخلة علامة للمكان والوطن

الشاعر الخطراوي مدنيّ: عاش في المدينة المنوّرة طفلاً، وشابّاً، فكهلاً، حتّى وسّد الثّرى في (بقيعها) .

وتلك سيرة يفتخر بها الشّاعر؛ على حدّ قوله[1] :

وحسبي أن يقول رواةُ شعري ... مدينيّ أتى شعراً جميلا
تطاول قدره في الناس حتّى ... نفوا عنه المشابِهَ والمَثيلا
وزان به أكاميم العذارى ... وأنبتَ في يد الرملِ النجيلا
ومن تكن المدينة مبتغاه ... تفيّأ ظلّها ، وسما قبيلا
لقد أعطيتها حبّي وعشقي ... ورحت أجرُّ في النّاس الذيولا
لعلّي أن أموت بها فأحظى ... بنيل شفاعةٍ تلقى النزيلا

وهذا الحبّ والشغف بالمدينة جعل الشاعر يتغنّى بها كثيراً في شعره ويخصّها بأكثر من ديوان.

أهدى الشاعر مدينته ديوانه الذي وسمه بـ (على أعتاب المحبوبة) وهذا العنوان يحيل إلى أحد أسماء المدينة الكثيرة (المحبوبة)[2] . وممّا يلفت النّظر في هذا الديوان عتبة الغلاف ـ إضافة إلى عتبة العنوان ـ فقد توشّح بصورة تدلّ دلالة سيميائيّة على شخصيّة المدينة : باب كبير يُفتح من صحراء قاحلة ذات كثبان رمليّة قاسية ، يفضي إلى غابة نخيلٍ تحول بين رمال الصحراء وبين بيوت المدينة التي تبدو من بعيد وتظهر من بينها مئذنة مسجد).

(١) على أعتاب المحبوبة ، ص ١٢١، ١٢٢ .
(٢) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، للسمهودي ٢٤/١، وقد أوصلها السمهودي إلى (٩٤) اسماً .

وقد جاءت هذه العناصر أو المعالم بهذا الترتيب : الصحراء / فالنخيل / فبيوت المدينة ، في إشارة واضحة إلى أنّ النخيل هو أوّل ما يتلقّى القادم إلى المدينة بشموخه وخضرته وبهجته.

وأوّل نصّ يقابلنا في هذا الديوان هو نصّ يمثّل رحلة في الذاكرة، نصّ تتضامّ فيه كلّ معالم المدينة لاستقبال خير قادم إليها عبر العصور : محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، فقد كانت المدينة تنتظره بكلّ ما فيها :أهلها، ونخيلها، وروابيها، وعرصاتها.

يقول الشاعر وكأنّه قد عاش تلك اللحظة[1] :

أنا في طيبة .. وقلبي شوق وحنين لطلعة المختار
والروابي : متيم ومشوق والنخيل الرشيق ذوب انتظار
وهتاف الترحيب يعلو صداه لعنان السماء في استبشار

كان أهل المدينة يخرجون إلى ظاهر المدينة كلّ يوم ؛ ينتظرون قدومه ـ صلى الله عليه وسلّم ـ ولا يدخلون بيوتهم حتى تشتد عليهم الشمس . وفي يومٍ حارٍّ ـ وبعد أن لجأ الأنصار إلى بيوتهم ـ دخل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المدينة، فلمّا شعر به الأنصار خرجوا إليه مسرعين مبتهجين، قالوا: "فخرجنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو في ظلّ نخلة ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه "[2] .

فكانت النخلة هي أوّل من استقبل النبي على (أعتاب المحبوبة)!

(١) على أعتاب المحبوبة ، ص ١٧.
(٢) سيرة ابن هشام ٤٩٢/١ .

وإذا تأمّلنا قول الشاعر (والنخيل الرشيق ذوب انتظار) رأينا كيف كان هذا العنصر المكانيّ مشاركاً مشاركة وجدانيّة حيّة في ذلك الاستقبال الحافل بالرسول الأعظم .

فاختار الشاعر صيغة (نخيل) وهو اسم جنس جمعي ، أو جمع الجمع (نخلة / نخل / نخيل)[1] ليدلّ على أنّ نخل المدينة كلّه كان صفاً واحداً في الانتظار، وأنّ هذه الجموع تمثّل الخير والخصب في هذه الأرض الطيّبة، كما توفّر لها حماية طبيعيّة من الرياح والسموم والحرّ .

ووصفها الشاعر بالرشاقة ـ النخيل الرشيق ـ ليشاكل بها شخوصاً إنسانيّة تمتاز باللّطف في الاستقبال ، في إشارة واضحة إلى ما يذكره بعض أصحاب السير : أنّ نساء المدينة شاركن في استقبال النبيّ ـ صلى الله عليه وسلّم ـ وهنّ ينشدن النشيد المشهور "طلع البدر علينا ".

فالتشاكل ما بين النخيل وأولئك النساء قائم على مشابه الشموخ والخصب والرّشاقة والشوق للقادم المنتظر؛ حتّى أصبح النخيل والنساء ـ مع جميع ذرّات المكان ـ في شغف شديد وانتظار مستمرّ عبّر عنه الشاعر بقوله :(ذوب انتظار).

وبساتين النخيل التي تمتد في سوح المدينة، وعلى أطرافها؛ أمدّت هذا المكان بالخير والجمال، كما أمدّت الشاعر بمعجم ثريّ الألفاظ تراه متغلغلاً في أشعاره كلّها (اللون الأخضر، الفيحاء ، الأفياء، الظلال، الجنى، الثمر، العذق، الغرس، شامخات ، باسقات ...).

(١) تاج العروس ، مادة (نخل).

انظر إلى قوله في معشوقته[1] :

مسرحُ القلب (طيبةٌ) وهواه وسواه مفاوز وطلول
تمرح العين في غلائلها الخضـ ـرِ ، ويصبو لوجهها التأويل

فتلك البساتين المحيطة بالمدينة صارت ـ في نظر الشاعر ـ غلائل ناعمة خضراء تلتفّ حول غادته الحسناء ، بلونها الأخضر الذي يرفّ بالنعمة والخصب والعطاء[2]، فكانت حقيقة بأن تكون مسرحاً للقلب ، ومتعة للعين ، وملهى للصبا .

ويتمدّد اللون الأخضر في شرايين الوطن عبر قصيدة جعلها الشاعر بعنوان (مواويل ملوّنة من أجل الوطن) يقول فيها مناجياً وطنه[3]:

يا أيّها المنبثُّ في دمـي
أغنية مخضرّة الحروف
ترقرقت ملء فمي بيادراً
وارفة الطيوف والقطوف
إلى أن يقول:
يا مهبط التنزيل .. يا مربع الإخاء
في طيبة الفيحاء
توهجتَ بيارقـا
وأرعدت فيالقـا
وحملقت أشاوسا
وحمحمت خيولْ

(١) على أعتاب المحبوبة ٣٧ .
(٢) اللغة واللون ، أحمد مختار عمر ، ص ٢١٠.
(٣) أسئلة الرحيل ٨٦ ـ ٩٠.

فالتفت الكون لراية التوحيد
ودان للإلـــــه.!
وتابع الرسولْ.!
والقبّةُ الخضراء
تبتكر الأسماء والأشـياء
لاهجة بالشـــكر والثناءْ
وحولها المآذن الشاهقة الأضواء
كالغابة الغنّاء
تحدّث الأبناء والأحفاد
عن روعة البناء.

بنى الشاعر هذا المشهد على عناصر أربعة تحيل إلى معاني كثيرة ، وتتشاكل في بعضها ، يمكن تصويرها عبر هذا التخطيط :

القبة	المآذن	النخيل	راية التوحيد
خضرة	علوّ	علوّ	علوّ
مسجد	مسجد	خضرة	خضرة
قداسة	قداسة	شرف	شرف

فهذه العناصر تتشاكل في معاني : العلوّ ، والخضرة ، والقداسة / الشرف .

وبالرّغم من أنّ الشاعر جعلها تتضامّ في هذا المشهد الجميل ؛ إلاّ أنّه ـ على ظاهر النّصّ ـ ركّز على اللون الأخضر، وجعله مندلقاً في مواويل الوطن ذات الحروف المخضرّة ، وفي طيبة الفيحاء، وفي قبّة مسجدها الخضراء، وفي مآذنها التي تشبه النخيل الشامخ في الغابة

الغنّاء، وفي راية التوحيد . كلّ ذلك يجعل للون الأخضر حضوراً قويّاً في قصّة كفاحه: من الخوف والحرب والجوع والشتات؛ إلى الأمن والسلم والوحدة والخصب والرخاء ، فحقّ لذلك اللون أن يلوّن راية هذا الوطن، وأن يحتلّ الجزء الأكبر منها، وحُقّ للنخلة (الخضراء) أن تكون أيقونة في شعار هذا الوطن المعطاء.

أمّا وصف (الفيحاء) فقد أطلقه الشاعر على المدينة أكثر من مرّة - وهو وصفٌ يدلّ على خصب المكان وكثرة شجره ، وسعته، وطيب ريحه[1]. وأكثر شجرة شكّلت هذا الوصف في المدينة هي النخلة يقيناً ، على حدّ قول الشاعر من قصيدة بعنوان (حبيبتي) :

إنّها (طيبــةٌ) وفاحـــت عطورٌ وتغنّـــت عنـــادبٌ وقماري
وانتشت نخلةٌ ، وغــرّد (جوري) وتجلّــت أفراحها في الحرارِ

يعدّد الشاعر مفاتن مدينته (حبيبته) : النّخلة، والزهور والعطور، والطيور، ويمكن تصوّر تشاكلاتها من خلال هذا الجدول :

النخلة	الزهور والعطور	الطيور (العنادب والقماري)
الجمال	الجمال	الجمال
الخصب	الشذا	الغناء
(النشوة)	(التغريد)	الخصب

هذه العناصر تشير كلّها إلى الجمال والخصب، وأدخل الشاعر عليها دلالات أخرى (النشوة في النخلة) و (التغريد في زهرة الجوري)

(١) لسان العرب (فيح) .

ليشاكل بذلك الغناء عند الطيور، وهذا كلّه يشير إلى طرب هذه العناصر وفرحها ؛ بانتسابها إلى المدينة المقدّسة (طيبة) .

إلاّ أنّ الشاعر اختار النشوة ـ وهي صفة تعتري الإنسان فتدلّ على زيادة فرحه وسروره ـ صفة جديدة للنخلة ؛ للدلالة على حضورها الزائد والمميز في التأشير على المدينة .

وإذا ذكر نخيل المدينة تقفز إلى الذاكرة ساحات وأودية في المدينة ارتبطت ببساتين النخيل الملتفّة، منها قباء، والعوالي، والعيون، ووادي العقيق (الوادي المبارك) وقد اختصّه الشاعر بأحد دواوينه، وسمّاه (ثرثرة على ضفاف العقيق) وصدّره بفاتحة قال فيها: "العقيق وادٍ مبارك تتناثر البركات حوله وعلى ضفافه؛ من ههنا ومن ههنا؛ فتتحول إلى ثمار يانعة، وزهور مونقة، وخضرة ممتدة امتداد البصر"[١] .

وفي أحد نصوص هذا الديوان؛ في إثر سفر أبعد الشاعرَ عن الوطن؛ نراه يستدعي وادي العقيق بحقوله الخضر، ويجعله مشجباً للوطن[٢] :

وحين افتقدتك بين الوجوه
ارتحلت إليك .. وفيك
تمثلت أرجاءك البابلية
والعشب يسكبني في دوائرها
قطرات من السحر والشعر
يخضرّ منها هديل الحمام
وصوب الغمام
ترددها جنبات (العقيق)

(١) ثرثرة على ضفاف العقيق ، ص ٥ .
(٢) السابق ٥٤.

وتبعث فيك حنين الوتـر
أويت إلى صوتك المخملي
تمددت من فوقه سنبلة
وفاكهة ونخيلا وأباً

فهذه اللوحة التي يتشبّث فيها الشاعر بوطنه موشّاة بالخضرة والجمال، كيف لا وهي في حوزة وادي العقيق؟ لقد اخضرّ منها كلّ شيء حتى صوت الحمام، وصوب الغمام، حتّى صوت الوطن يتصوّره الشاعر بســاطاً مخمليّاً؛ مطرّزاً بحقـول السنابل والفاكهة وبساتين النخيل .

وبالرّغم من أنّ الشّاعر نظر إلى الآيات الكريمة (وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا) [عبس: ٢٩] إلاّ أنّه تصرف في الاقتباس، واستحضر النخيل (جمع الجمع) بدلاً من النخل (الجمع) لما يحسّ به من اتساع رقعة النخيل في جنبات العقيق .

وبالمثل ترى هذه اللوحة الوطنيّة من قصيدة (علّمني الرمل)[1] :

وعلمني أن حباته
كل حباته غاليـــة
أنها موطني .. مسكني .. مسجدي
منشأي .. موئلي
أنها الأب والجدّ
حيث استقرا بها ذات يوم، ومنها
استوينا سلالاً من الزهر
نبعاً من الماء

(١) في دائرة الغبار ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

نخلاً .. حدائق غلباً
وأبّاً ، وساق شجرْ !

فكلّ ما في هذا الوطن من مظاهر الحياة هو من ترابه الطاهر؛ حينما عمّه الاستقرار والأمن والوحدة الكبرى .

ومرّة أخرى يستدعي الشاعر النصّ القرآني الذي يذكّر الإنسان بخيرات هذه الأرض (وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا) [عبس: ٢٩] ولكنه لم يفصل ما بين (نخلاً) و (حدائق غلباً) بحرف العطف، وإنّما جعل الثاني وصفاً للأوّل أو بدلاً منه ؛ إشارة إلى أنّ هذا هو ذاك، وأنّ النخل هو أظهر ما يكوّن حدائقَ الوطن الغنّاء .

ويستحضر الشاعر النّخيلَ في قصّة تأسيس المملكة العربيّة السعوديّة على يدي بطلها المغوار جلالة الملك عبدالعزيز: إذ صوّر الشاعر لحظة لقاء القائد المظفر بقلب وطنه الذي لم ينسه، ولم ينس بطولات أجداده وسيرهم العطرة، حتى أضناه الشوق لعودة تلك الذكرى وتلك السير النيّرة .

قال من قصيدة بعنوان (على مشارف الرياض)(١):

ونزلتَ الشّقيب ترسم فيه ... خطّةَ النّصر صحبةَ الأبطال
ومنحتَ الرياضَ نظرةَ صبٍّ ... عاشقٍ غابَ في وثير الخيالِ
فرأيتَ الأسوارَ تشمخُ سَكرى ... بحُمَيّا الأهوالِ والآجالِ
والنّخيلَ الكثيفَ حولَ حِماها ... غارِقاً في سكينةٍ وجلالِ
والأصيلَ الجميلَ يسكبُ ذوباً ... من ضياءٍ مُضمَّخٍ بالظّلالِ
ينتظرنَ العريسَ يُقبلُ يوماً ... من خلال الصّحراء فوقَ الرّمالِ

---

(١) أمجاد الرياض ، ص ٥٦ ، ٥٧.

النخيل والأسوار لفظان يدلّان على (العلوّ ، والحماية ، والكثرة) جعلهما الشاعر في منظومة مترابطة، تترقّب لحظة اللقاء الحميم ؛ لحظة لقاء البطل بمحبوبته .

واختار الشاعر لفظ نخيل ـ جمع الجمع ـ كما اختار الوصف (الكثيف) ليعمّق معاني النفع، والكثرة، والحماية في هذا العنصر الحيويّ لمدينة الرياض.

أمّا الحال (غارقاً في سكينة وجلال) فقد ألبس هذا الشجرَ ـ من خلال التشخيص ـ لبوس الإنسان المترقّب ؛ الذي تغشّته مشاعر الفرح الممزوج بالسكينة والإجلال تحسّباً للحظة وصول البطل .

وإن أنعمت النظر في بقيّة العناصر التي تؤثّث المكان رأيت تلك النخيل متزيّنة بالحليّ (ذهب الأصيل) متضمّخة بعطور (الظلال) الوارفة ، فحينئذٍ لا يساورك شكّ في أنّ هذا النّخيل ما هو إلاّ عرائس ، وأنّ تلك (السكينة والجلال) هي خجل العروس لحظة لقاء حبيبها وفارس أحلامها .

وهذا أمر يؤكّده قول الشاعر في جملته الحالية الفعليّة (ينتظرن العريس) القادم من ميادين الكفاح والبأس : الصحراء ورمالها الممتدة.

فإذا بالنخيل عرائس متشوّقة للفوز بقلب ذلك البطل المغوار .

وإن شئت فقل إنّ تلك الجموع من العرائس / النخيل قد جمّعت في شخص محبوبة واحدة، وهي الرياض، وقد منحها الشاعر حبّه وصبابته :

ومنحتَ الرياضَ نظرةَ صبٍّ عاشقٍ غابَ في وثير الخيالِ

ووقف الشاعر يتأمّل وفود الحجّاج ـ يوم عرفة ـ وأنّهم أتوا من كلّ حدب وصوب إلى هذه الديار المقدّسة في هذا البلد المبارك، فقال[1]:

على ساعديك
انتخبتُ المواقيتَ
أبرقتُ للراقصين
على صهوات الخيول
ويا حادي العيس أوغل بصدر الفيافي
قطاراً
وعانق بها الرمل
كي تنبت الأرض حبا وقضبا
ونخلا وأبا
(متاعاً لكم ولأنعامكم)
وترتبك النظرات
وعند حوافر تلك الخيول.
يموت الكلام
وفي ظل عينيك
يمتشط النخيل
تلقي الكروم غلائلها القرمزية.

فهذه الوفود المشتاقة لهذه الديار المقدّسة عندما تحلّ بثرى هذا الوطن؛ سترى ـ رأي العين ـ الأمن، والخير الوفير، والمحبّة والسرور.

(١) تأويل ما حدث ، ص١٤٦ ، ١٤٧ ، وثرثرة على ضفاف العقيق، ص ٤٧.

ونلحظ أنّ الشاعر عبر عن مظاهر ذلك الخير بدوالّ كثيرة منها (نخلاً، والنخيل) وهاتان كلمتان قرآنيّتان، يعرفهما كلّ مسلم حقّ المعرفة وهو يتلو كتاب ربّه، وهما مما امتنّ الله به على الإنسان من نعيمٍ في الدنيا وفي الآخرة.

ولا شكّ أنّ زائر هذا البلد سيرى النّخل في كلّ مكان، فتأنس به نفسه، ويرى في ذلك رمزاً للخير والسرور وحسن الاستقبال . وقد عمّق الشاعر هذا المعنى بهذه الصورة المجازيّة (يمتشط النخيل) التي تشير إلى أنّ هذا النخيل في كثرته ، ونضرته ، واصطفاق أغصانه ؛ كأنّه غيد حسان يمشّطن شعورهن الطويلة الجميلة ، وتلك صورة نابضة بالعطاء والجمال .

وواضح أنّ الشاعر اعتمد في هذا المشهد النّصيّ على ثلاثة عناصر كبرى متضامّة متشاكلة ؛ على هذا النحو:

الديار المقدّسة	الإنسان (المرأة)	الشجر (النخل والكروم)
الخصب الروحي	الخصب	الخصب
الأمن والسرور	الأمن والسرور	الأمن والسرور

ومن أجل ذلك عبّر بها الشاعر عن مشاعر الزائرين للبلد الحرام، وما يجدونه من راحة وطمأنينة ، وخدمات جليلة تنتظرهم .

لقد ارتبطت النّخلة بهذا الوطن المعطاء ارتباطاً عضويّاً ، تحيل إليه وتدلّ عليه ، حتى صارت (أيقونة) له وشعاراً رسميّاً ، يُرفع في كلّ المحافل والمناسبات . وقد ألمح الشاعر إلى ذلك في قصيدة وطنيّة بعنوان (في ظلال البيعة) وفيها يقول[1] :

(١)على أعتاب المحبوبة ، ص ١٢٧ .

ونــوالي ســيرنا نحــو العُلَــى بالكفــاح الحــرّ والعــزم المكــين
بيــدٍ ســيفٌ، وأخــرى قلــم قــد نمــا بينهمــا حُــبٌّ مبــين
وعلــى النخلــة مــن آماقنــا ثمــرٌ حلــوٌ ، يســرّ النــاظرين
وآمانينــا جــوادٌ مُســرَج وشــراعٌ مبحــرٌ، لا يســتكين

وهي إشارة إلى النخلة التي تتوسّط شعار المملكة، وترمز إلى الرّخاء والنماء، وعبّر الشاعر عن ذلك بالثمر الحلو الذي تشرئبّ له الأعناق، وتتعلّق به العيون؛ كناية عن الآمال المعقودة على هذا الوطن وقادته وأبنائه .

المبحث الثاني ـ النخلة رمزاً للإنسان

ارتبطت النّخلة في الأذهان بالإنسان الخيّر؛ منذ القدم، وتأكّد هذا المعنى في ظلّ ديننا الحنيف، فقد ضرب نبيّنا ـ صلّى الله عليه وسلّم النخلة مثلاً للمسلم ، فجاء في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما، قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ».[متفق عليه] قال النووي في شرح الحديث: "قَالَ الْعُلَمَاءُ وَشَبَّهَ النَّخْلَةَ بِالْمُسْلِمِ فِي كَثْرَةِ خَيْرِهَا وَدَوَامِ ظِلِّهَا وَطِيبِ ثَمَرِهَا وَوُجُودِهِ عَلَى الدَّوَامِ فَإِنَّهُ مِنْ حِينِ يَطْلُعُ ثَمَرُهَا لايزال يُؤْكَلُ مِنْهُ حَتَّى يَيْبَسَ وَبَعْدَ أَنْ يَيْبَسَ يُتَّخَذُ مِنْهُ مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ، وَمِنْ خَشَبِهَا وَوَرَقِهَا وَأَغْصَانِهَا فَيُسْتَعْمَلُ جُذُوعًا وَحَطَبًا وَعِصِيًّا وَمَخَاصِرَ وَحُصُرًا وَحِبَالًا وَأَوَانِيَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، ثُمَّ آخِرُ شَيْءٍ مِنْهَا نَوَاهَا وَيُنْتَفَعُ بِهِ عَلَفًا لِلْإِبِلِ، ثُمَّ جُمَالُ نَبَاتِهَا وَحُسْنُ هَيْئَةِ ثَمَرِهَا فَهِي مَنَافِعُ كُلُّهَا وَخَيْرٌ وَجَمَالٌ، كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ خَيْرٌ كُلُّهُ مِنْ كَثْرَةِ طَاعَاتِهِ وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ".

وهذه النخلة ـ إذن ـ تتلبّس بالإنسان الصالح ـ ذكراً كان أو أنثى ـ في هذه المشابه الكثيرة؛ التي يجمعها كثرة الخير والعطاء والجمال .

رثى الشاعر أباه الرّاحل فقال[1] :

وكان أبي
رائعاً كالربيع
يفيض عطاء وزهرا وماء

(١) في دائرة الغبار، ص ٢٢ ـ ٢٨ .

وكالفجر ساعة يولد
كالظل في خيمة الشمس
كالنخلة الفارهة
منيعا كالحصن
وكان أبي جنة وارفة
بها ألـــف باب
فمن أي باب نشاء دخلنـا
وفي أي ظل نشاء أقمنـــا
ومن أي نهر نشاء شربنا
ومن أي عِذْق نشاء أكلنـا
ومن أي زهر نشاء قطفنا

فالشاعر يقصّ من سيرة أبيه هذه الشمائل الطيبة الكثيرة، التي منها أنّه كان مدراراً بالخير لبنيه (كالنخلة الفارهة) التي تمدّهم بأطيب العذوق.

والنّخلة الفارهة هي النّخلة التامّة الخلق، جميلة المنظر، كما قالت العرب: "جارية فارهة إذا كانت حسناء مليحة "، و"دابّة فارهة أي نشيطة "[1]، وتكون النّخلة في هذه الحال أجود ثمرا، وأغزر إنتاجاً. وإلى ذلك أشار بقوله (عذق) لأنّ العذق هو قنو النخلة المكتنز تمراً؛ حال نضجه وينعه .

وأمّا الشاعر في صلته بمباهج الحياة وزينتها فإنّه كثيراً ما يستحضر النخلة ببهجتها وزخرفها .

(١) لسان العرب (فره).

كقوله في ظرف من السعادة والحبّ[1] :

يا أنتِ يا من تقحّمتِ ذات مساء
سكينةَ نفسي
وأومضت مثل المصابيح في الدرب فجأَة
ومن غير إذن دخلتِ
تخلّلتني كصباح جميل تخلل نخلة
فغنت بها الوُرْقُ
خطتْ بها قبُلات النسيم سطورا من العشق
رفّت بقلب العناقيد وَجْداً
وأيقظت الظلّ والماء.

فالشاعر لم يجد ما يصوّر به لحظة اللقاء بينه وبين محبوبته؛ التي أثارت فيه مكامن الحبّ والعشق؛ إلاّ منظر الصباح وهو يرسل أشعّته الذهبيّة فتخلّل النخل فيبعث فيها البهجة والحياة، ويجعل للظلّ معنى ، ويجلب لها الطيور الجميلة المغرّدة .

وذلك أنس لا يحسّ به حقّاً، ولا يقدّره حقّ قدره إلاّ أهله ممن اعتادوا عليه ـ كأهل المدينة ـ فللجلوس في ظلّ النخل متعة؛ ولا سيّما في الصباح الباكر؛ حيث وشوشة سعف النخيل بالنسيم العليل، والظلّ الذي تصنعه أشعّة الصباح، والماء الجاري في السواقي، والطيور المغرّدة !

وهذا المشهد الجميل ينعقد حول (النخلة) فهي صانعته، وهي لذلك رمز الحبّ والبهجة والسّرور .

(١) تأويل ما حدث ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

ولارتباط الطيور ـ أو بعض أنواعها ـ بالنخيل معنى جميل عند أهل المدينة ؛ لأنّها تكثر في وقت نضج التمر . وبالرّغم من المعركة التي تدور بين الفلاح وبين هذه الطيور التي تهاجم ثماره، إلاّ أنّه يستمتع بمنظرها وأصواتها وهي تتقافز هنا وهناك .

وقد استحضر الشاعر طائر (النُّغْري) حال ارتباطه بالنخل؛ ليشتقّ منه شبهاً لمحبوبته أو لعينيها ؛ أكثر من مرّة ، فقال[1] :

وعيناكِ لؤلؤتان استقرّا على جبهة الليل حين ظهر
ونُغْرِيّتان بنخل (قباء) على غصن (فاغيةٍ) قد سكر
أطلّي على عالمي أغنيات تراقصُ فيها الرّؤى والصّور

وقال[2] :

وعودي كما كنت ريحانةً لروحي ، وفاغيةً مورقة
ونُغريّةً بنخيل (قباء) تردّد ألحانها المونقة

ثمّة ثلاثة عناصر رسم بها الشاعر هذه الصورة العاطفيّة الجميلة

ـ النغري المغرّد (والنغري طائر صغير، شديد الحذر، سريع الحركة، حاد الصّوت).
ـ نخيل قباء (قباء من الأمكنة المشهورة في المدينة بوفرة بساتينها، وجودة نخيلها).
ـ الفاغية المورقة (وهي شجرة الحنّاء، ولها أزهار جميلة، وثمار حلوة).

(١) حروف من دفتر الأشواق ، ص ١٦٣.
(٢) السابق ، ص ١٦٧ .

فهذا الطائر الجميل وهو يتنقّل ما بين نخلة مثمرة، وفاغية مونقة، وهو يصدر تغريداته الحادّة ـ وجد فيه الشاعر صورة للطافة حبيبته ، أو لجمال عينيها المتلألئتين.

وفي موطن آخر يخاطب الشاعر محبوبته بعد موجة من الغضب، فيقول[1] :

ضعي يديك في يدي
وأقبلي كالسُّحُب المنعّمهْ
مخصبةً .. سخيّةً .. كالنخلة الولود
كالخبر السعيد.

إنّه يريد من محبوبته أن تكون سخيّة معطاء مثل النخلة المثمرة ، ولكنّه آثر أن يعبّر عن عطاء النخلة بالولادة المتكررة، فوصفها بصيغة المبالغة (الولود) وهي صفة ـ كذلك ـ تنقل النخلة من عالم الشجر إلى عالم الحيوان أو البشر! إنّها نخلة جديدة؛ تشبه المرأة (الودود الولود) وهي خير النساء ـ كما جاء في الأثر ـ وعليه فهذه النخلة خير النخيل !

(١) أسئلة الرحيل، ص ١١٩ .

المبحث الثالث : النخلة رمزاً للثبات والشّموخ

تكاد تجمع كلمة المفسّرين على أنّ المراد بالشجرة في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيۤ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) [سورة إبراهيم ٢٤ ـ ٢٥] أنّها النّخلة[١]؛ لأنّها خير شجرة تمثّل الثّبات والشموخ والعطاء الخيّر، وسواء كان ذلك في الكلمة الطيّبة، أو في النّفس الطيّبة .

وشاعرنا كثيراً ما يتّخذ النخلة نموذجاً للقوّة والثّبات والشموخ .

انظر إليه في قصيدة كتبها بعنوان (سيرة ذاتيّة) يومئ فيها لوطأة الزمن عليه، بعد أن كان رجلاً قويّاً ، فيقول[٢] :

وذات مرة
وجدتني تقرؤني (الأبراجُ) والمصايرْ
تغري بي البيادر
تغرسني في رأد الضحى أغنيةً
كثيرة المقاطع
وفي الحقول نخلةً صليبةً
ثريّةَ الأعذاقْ
ودانيَهْ
شهية القطوف

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٣٧ (طبعة التركي).
(٢) في دائرة الغبار، ص ١١٣ ، ١١٤.

لكنّها إذا استحالت خمرةً
أو خلّةً ..
تُقطع من جذوعها
يستلّ روحَها الخُواءُ والحواةُ والجرذانُ ..!
ليس لها غيرُ جُفاء الأودية .

فالشاعر يرسم لنفسه ـ وهو في حال الصحّة والشّباب ـ صورة نخلة تامّة مثمرة ، وعبّر عن ذلك بدوالّ كثيرة : الفعل (تغرسني) بما يحمله من معاني العناية والتعاهد بالسقي والرعاية؛ حتى أصبح نخلة (صليبة) وهي القويّة الثابتة التي تنتج الأعذاق (الثريّة) أي المكتنزة تمراً ناضجاً يسرّ النّاظرين .

كلّ ذلك ليرتّب عليه الصورة المقابلة؛ صورة الشيخوخة والكِبر، عندما يصبح الإنسان عالةً على غيره أو نهباً للأمراض ، تماماً كالنخلة العجوز التي لا تنتج إلاّ رديء التمر ، الذي لا يصلح لشيء إلاّ أن يتّخذ الناس منه (خمراً) مضرّاً ! فعندئذٍ ينبغي اجتثاث هذه النخلة من جذعها وأصلها، ورميها في بطون الأودية لتكون زاداً للديدان والجرذان، أو حطباً للحطّابين .

وعندما صوّرغرور محبوبته وإدلالها بجمالها وطولها الفارع استحضر النخيل كمعادل ومعيار لذلك فقال[1] :

أتدرين أنك فجّرتِ زهوَ الحقولِ بألف قذيفة
فآلت رماداً تطوّحه الرياح
تذروه في جنبــاتِ الفضاء
وأنّك أذللتِ كِبْرَ الصّواري

(١) تأويل ما حدث، ص ٨٧ .

.. اعتزازَ النّخيل بقاماتها الفارهة
فضاقت بك الأرض.

فصاحبته في جمالها وطولها امتازت على النخيل، ولكن الشاعر عبّر عن ذلك بهذه الصّورة التشخيصيّة : فإذا بالنخيل جماعة من النساء الحسان؛ يزدهين بقاماتهن الفارعة، التامّة الخلق، الحسنة الرّواء (عرفنا سابقاً أنّ الفارهة هي: تامة الخلق، طيّبة الثمار). ولكنّ هذه المرأة في جمالها وكبريائها حطّمت اعتزاز تلك النسوة/ النخيل، وأذلّته، وأربت عليه .

وفي ذات مساء وقف الشاعر يناجي (جبل أُحد) وما شهده من بطولات وانكسارات؛ عبر التاريخ ، لينتهي من خلال ذلك إلى التفاؤل وعودة الأمل في الأمّة وبلوغها ما تؤمّل من عزّة وبطولات.

فيقول[1] :

هذه الأرض لم يمُتْ في ثراها	نبضُ أيّامنا الشِّراف الوِضاءِ
فالسفوحُ المدجنات نزوعٌ	لذرى الشمس واختراق الفضاءِ
والنّخيلُ المزورّ عاد إلينا	زاهيَ العذق، وافرَ الكبرياءِ
والمدى مخصب بكلّ قصيدٍ	أُحُديٍّ ، معطّر الأرجاءِ

فشاعرنا استدعى النخيل ضمن منظومة العناصر التي تبشّر بعودة الأمّة لسالف عهدها من العزّة والبذل والتضحيات .

(١) على أعتاب المحبوبة، ص ٧٢.

وهذا الاستدعاء أتى من علاقةٍ بين جبل أحد والنخيل منذ القدم ـ يعرفها الشاعر تمام المعرفة ـ فسفوح جبل أحد من الأماكن المشهورة بنخيلها الكثير في المدينة.

فكان هذا النخيل شاهداً علينا ، وشاهداً لنا !

يشهد علينا إن نحن تخاذلنا عن بطولاتنا وتضحياتنا، فنراه (مزورّاً) غاضباً ، لا يرضى لنا بالذلّ والهوان .

وإن نحن نهضنا وعدنا لقوّتنا وبطولاتنا وجدنا النخيل مبتهجاً، يعود إلينا شامخاً يحيّينا، ويجود لنا بأحسن الثمر والأعذاق.

وعليه فإنّ هذا النخيل يعبّر عنّا في حالتي الانكسار والانتصار . وإذا كان هذا النّخيل يعدّ مضرب المثل ـ للإنسان ـ في الصلابة والثبات والشموخ والعطاء، فإنّه كذلك ـ في المقابل ـ يمثّل حال الإنسان في الفناء والضّعف. فقد شبّه الله قوم عادٍ عندما سلّط عليهم ريح العذاب؛ التي أهلكتهم، وبدّدتهم؛ بأعجاز النخل الميّت التي أصبحت هشّة منخورة ، فقال تعالى : (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) [الحاقة: ٧] ووصفهم في موطن آخر فقال: (تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ)[القمر: ٢٠].

وقد استحضر الخطراوي هذه الصورة في أكثر من موطن، كقوله عن كفّار قريش الذين جُندلوا في معركة بدر[1] :

والصناديدُ من ذُؤابة فِهْرٍ يتهاوَون كالنخيل الخُواءِ

(١) على أعتاب المحبوبة ، ص ٨٥ .

والخواء : هو المجوّف ، ولا يكون النخيل كذلك إلاّ بعد أن تفتك به الديدان والآفات فتنخره من الداخل ، فيسقط ويهوي لأدنى اهتزاز من الرياح أو غيرها ، وكذلك الإنسان يصبح أجوف فارغاً إن خلا من قيم الإيمان والتديّن الحقّ.

ومن قصيدة رمزيّة بعنوان (الريح .. والشّجر) يقول[1]:

كنخلةٍ منقعرة
تقتحم المساء (بالأحقاف)
تلتهم الجفاف
وتلتقي بالموت في مشانق الرمال
أنا على (لِخافها) أسطورةٌ مشوّهة
تعوي بوجه الريح
تثقب الحقائق المزوّرة
وتركب الأوهام في مضاجع الغجر
لعلّها تستنقذ الصّباح
لكنّه صباح المنْذَرين!

واضح استدعاء الشاعر للفظ القرآني الكريم (كنخلة منقعرة) وهي التي اجتُثّت من أصلها، وبقي جذعها يابساً مجندلاً على الأرض. واتّخذ ذلك قناعاً لمن يكابر في وجه القوى التي لا قبل له بها .

ثمّ إنّ الشاعر وهو يزجي النصح والتحذير ولا يلتفت له أحد من أمّته، سوف يلحقه ما يلحقها من دمار، ولكنّه يبقى علامة مميّزة في قصّة مأساتها، وكأنّه مخطوطة مسطورة على (لخاف) نخلة ماتت ،

(١) تأويل ما حدث، ص ٤٥ .

وكان لها أن تبقى حيّة شامخة؛ لو أصغت لحديث شاعرها الأسطوريّ الناصح المشفق ، ولكن هيهات !

وفي قصيدة بعنوان (لقطة مسموعة) يصوّر الشاعر مآسي الإنسان المسلم في هذا العصر، وتأخّر أسباب النّصر عن قضاياه الملتهبة في كلّ مكان[1] :

واحترقت مراكبي واقفة
كنخلة عجوز
أخطأها النيروز
وانكسر المجداف في يدي
وصدئت أرجلنا
وقوستها الريح.

إنّ الشاعر يعبّر عن حال المسلم الذي طال انتظاره ليبحر في لجة بحر السعادة والأمن والسلام، ولكن حُبست مراكبه ؛ حتى صدئت، بل احترقت وتهشّمت.

وقد استعار الشاعر لهذه الصورة البائسة صورة نخلة كبيرة ، ماتت في زمن القحط ، وقوّستها الرياح فتهشّمت ؛ قبل أن ينالها موسم الأمطار والربيع .

هذه الصّور الحزينة لآمال الشاعر / المسلم عصفت برمز الثّبات والشموخ والعطاء (النخلة) فصيّرته هشيماً تذروه الرياح .

(١) السابق ١٦٥.

وفي موطن آخر يستدعي الشاعر النخيل ليكون شاهداً على تناقضات الناس: شعائر تعبديّة ظاهرة كالصّلاة والأذان؛ عدّة مرّات في اليوم، وفي المقابل بدع وخرافات، ومعاصي ظاهرة وباطنة ! قال[1] :

وتشكو الجوامعُ هجرةَ أظلالها
حين ينتهك الموجُ حرمةَ أطرافها
وتضيق المحاريب من رجس غوغائها
تتدلّى منائرها فجأةً
ويموت الأذانُ بأبوابها
وتصلَّب أحرفُه
في جذوع النخيل
وتُشنَقُ في حفلة صابئهْ
يتحوّل أغنيةً لازوردية
في مرقص معتمٍ بدخان السجائر.

إنّ هذا التناقض المؤلم ما بين عمل المسلم في مسجده ، وأعماله خارج المسجد جعل الشاعر يستدعي ذلك الفعل (الفرعوني) الغاشم الذي طال المؤمنين ، وبطش بهم قتلاً ثمّ صلباً على جذوع النخل ، كما بيّنه القرآن الكريم : (قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ) [طه ٧١] .

(١) على أعتاب المحبوبة، ص ١٤٢ .

وكأنّ الشاعر نظر لكلمات الأذان وأحرفه التي تدعو لتكبير الله ، وتوحيده ، وتوقير رسوله الكريم ، وتدعو للفلاح والصّلاة، ولكنّها لا تبلغ من المسلمين ما يريد منهم الشرع المطهّر ، فتذهب هذه الكلمات سدى ــ كأنّ الشاعر نظر إليها وهي تخرج من منائر المساجد فتبقى مصلوبة على جذوع النخل المحيطة بالمسجد فحسب !

وحافظ الشاعر على صيغة الفعل القرآني (صلّب) التي تدلّ على التكثير، وطول المدّة للفعل، وكذلك عدّى هذا الفعل بحرف الجرّ (في) كما في الآية الكريمة ، وهذا الحرف يدلّ على الظرفيّة والتمكّن، أي أنّه "شبّه تمكّن المصلوبِ في الجذع بتمكّنِ الشيء الموعَى في وِعائه"(١).

واختار الشاعر لفظ (النخيل) على (النخل) ليدلّ على كثرة هذا الفعل وتكراره مرّات عديدة على مرّ الأيام .

المبحث الرابع ـ النخلة رمزاً للعطاء.

غير خافٍ أنّ النخلة خير كلّها للإنسان : يأكل ثمرها ، ويستظلّ بظلّها ، وينسج أوعيته من جريدها وسعفها وليفها ، ويسقف منزله من جذوعها ... حتّى غدت هذه الشجرة رمزاً للعطاء والخير العميم .

وكذلك كان الخطراوي ينظر للنخلة أنّها قرينة الخصب والخير والسعادة .

فمن قصيدة عاطفيّة يتملّى الشّاعر مظاهر الكون، فيرى فيه البهجة والوفر والخصب، قائلاً(٢) :

(١) الكشّاف للزمخشري ٧٦/٣ .
(٢) همسات في أذن الليل، ص ٧٢ .

فـالرّبيع الجميل يزخـرُ حسنـاً يمــلأ الكــون بهجــةً وعبيــرا
باسقاتٌ به الطيوفُ العذارى تــارةً يختفــي ، ويظهـرُ طـورا
ربّمــا أينعـتْ وطــابَ جناهــا وغـدتْ غابــةً تظـلّ الحَـرورا

فقد استعار الشّاعر لأطياف العذارى صورة ترفّ بالحياة من خصائص النّخيل ، وركّز على صفتين : (باسقات) وهو لفظ قرآنيّ يدلّ على الشّموخ والقامات الممشوقة الذاهبة في علياء النّعيم ، وصفة طيب الثمر والنّضج (أينعت وطاب جناها) وهي ألفاظ قرآنيّة كذلك .

وهذه الصفات تدلّ على تمام الخصب في هذا الموسم ، وعلى طول مكثه وعموم خيره في الأرض .

ومن قصيدة رمزيّة بعنوان (الدورق والمطر) يتحدّث الشاعر عن صيرورة الماء ـ أصل الحياة ـ وتحوّلاته في مظاهر الكون، فيقول(١) :

وما الأصل في النبع يا حلوتي
سوى نقطة من مطر
تألق فيها غدٌ مشرق
وحلم يتيه بأشواقنا
فكان نميراً وكـــان زلالاً
وكانت أطايبه ثمراً يانعاً
وكروماً ونخلاً
وزهراً ونحلاً
ونهراً من الوجد لا ينتهي.

(١) تأويل ما حدث، ص ١٤٢ .

يريد الشاعر أنّ الخير من صفته النماء والبركة، فالقطرة الصغيرة مع استمرارها ستكون نبعاً أو نهراً جارياً، تشرب منه الأحياء، وينبت به الزرع .

واستدعى الشاعر نماذج قرآنيّة للتدليل على تحوّلات الماء إلى مجاني حسنة، وثمار يانعة، فذكر: الأعناب، والنخل، والزهر، والنحل، والنهر .

وهذه كلّها سرّ وجودها ونفعها هو الماء المتحدّر فيها .

وإذا ربطنا ذلك بعنوان القصيدة (الدورق والمطر) فهمنا قصد الشاعر وهو أنّ دورة الحياة لا تكون إلاّ بهذا التكامل وهذا الازدواج ما بين عناصر الكون الكبرى، كالذكر والأنثى ، والماء والأرض ، وأنّ هذا الماء قد يصادف من الأرض أماكن تحفظه ـ كالدورق ـ ليستقي منه الناس ، أو يصادف بلداً طيباً ينبت الزرع والشجر وأطايب الثمر.

ومن قصيدة بعنوان (الظمأ إليك) يخاطب الشاعر وطنه فيقول[1]:

أنا شهقة الأمواج في شطآنها أنا لهفة الصحراء للأمطار
أنا وشوشات الطلع في أكمامه وأنا رفيف العطر في الأزهار

وفي هذين البيتين ـ بل في القصيدة كلّها ـ يعلن الشاعر تماهيه مع وطنه، واندماجه في جميع مكوّناته وتضاريسه، فالوطن هو الإنسان، والإنسان هو الوطن، وهو صانع وجوده وحقيقته، وصانع مجده وخيراته .

وقد أحسن الشاعر أيّما إحسان في تعبيره عن الآمال المعقودة على إنسان الوطن فاختار لذلك ـ من بين ما اختار ـ صورة من عالم

(١) مرافئ الأمل، ص ١٨ .

النخيل (أنا وشوشات الطلع في أكمامه) وهي صورة جدّ معبّرة عن الأمل بالعطاء والحبّ ! فإنّ الفلاّح في ترقّب دائم للحظة خروج أكمام النّخيل ، ثمّ لم تزل عيونه معلّقة بتلك الأكمام حتى تنشّق عن الطلع ، ثمّ يراقب البسر وهو يكبر شيئاً فشيئاً حتى يبدو ناضجاً وثمراً يانعاً .

وقد أسبغ الشاعر على هذا المنظر الجميل صفة إنسانيّة من خلال (الوشوشات) التي تدلّ على الحبّ والألفة ما بين الأزواج ـ مثلاً ـ وذلك سبيل المودّة والنماء والعطاء.

وفي هذا صيرورة للطلع من واقعه الكوني المعروف إلى طائفة من المحبين العاشقين، المولّهين بوشوشات الحبّ، وهم في مخادعهم ، والمؤمّل أن تنكشف هذه العلاقة الحيويّة عن باقة من الثمر الجميل النافع للإنسانيّة .

خاتمـــة

استطلعت المباحث السابقة وجود النّخلة في تجربة الشاعر المدني ـ محمد الخطراوي ـ وكيفية تحوّلاتها وسيرورتها في نصوصه الشعريّة رمزاً لمعانيه وأفكاره الشعريّة .

وخلصت هذه الدّراسة إلى مجموعة من النتائج ؛ أبرزها :

١ـ أنّ حضور النخلة الموفور في شعر الخطراوي أتى وفقاً لتوقّع القارئ ؛ إذ إنّ الشاعر عاش في بيئة من أشهر البيئات التي تنبت النخيل في الجزيرة العربيّة ؛ منذ القدم .

٢ـ مثّلت النخلة لدى الخطراوي نظاماً من العلامات (رمزاً ، ومؤشّراً، وأيقونة) للوطن المعطاء، وللإنسان الخيّر ، وللقيم الإنسانيّة النّبيلة؛ كالثّبات والعطاء، وتلك دلالات معروفة للنّخلة عند العربيّ؛ منذ القدم.

٣ـ أمدّت النخلة الخطراوي بمعجم ثري من الألفاظ والمفاهيم (كالغراس، والعذق، والظلال، والفيحاء، واللخاف، وباسقات ، وشامخات، والطلع ..) ممّا أشرنا إليه سابقاً .

٤ـ كثيراً ما يستدعي الخطراوي النخل من خلال وروده في آيات القرآن الكريم؛ اقتباساً من نور الذكر الحكيم .

وفي الختام ؛ فإنّ هذه الدراسة توصي بمزيد من الدّراسات عن حضور النخلة في تجارب الشعراء السعوديين ؛ فرادى وجماعات .

وبالله التوفيق

وله الحمد في الأولى والآخرة

المصـــادر

القرآن الكريم.

دواوين الشاعر :

- أسئلة الرحيل، دار البلاد للطباعة والنشر ،جدة ، ١٤١٩هـ.
- أمجاد الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ، ١٣٩٤هـ.
- تأويل ما حدث، نادي المدينة المنورة الأدبي ، ١٤١٨هـ.
- ثرثرة على ضفاف العقيق، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ، ٢٠٠٣م.
- حروف من دفتر الأشواق، نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٠هـ .
- على أعتاب المحبوبة ، المؤلّف ، ١٤٢٥هـ .
- في دائرة الغبار، نادي جازان الأدبي ، ١٤٢٤هـ.
- مرافئ الأمل، نادي جدة الأدبي الثقافي، ١٤١٣هـ .
- همسات في أذن الليل، نادي المدينة المنورة الأدبي ، ١٣٩٧هـ.
- المراجع:
- تاج العروس، للزبيدي ، مجموعة من المحققين ، دار الهداية للنشر والتوزيع.
- تفسير الطبري، تحقيق الدكتور عبدالله التركي ، دار هجر ، مصر، ط١ ، ١٤٢٢هـ.
- جريدة الرياض، العدد ١٦٠٨٣.
- دليل الناقد الأدبي، للرويلي والبازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ط٥، ٢٠٠٧م.
- ديوان امرئ القيس ، بتحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٨٤م.

- ديوان زهير، بشرح ثعلب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٤هـ.
- سقط الزند ، أبو العلاء المعرّي ، دار الكتب العلمية ، بيروت،د.ت.
- السيرة النبويّة، ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، مكتبة البابي الحلبي، ط٢، ١٣٧٥هـ.
- السيميائيات : مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية ، ط٣ ، ٢٠١٢م.
- شرح النووي على صحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ.
- شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري، للسيد أحمد عمارة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ.
- الشوقيات، أحمد شوقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .
- القاموس المحيط، الفيروزابادي، دار الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ.
- الكشّاف للزمخشري، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت ، د.ت.
- اللغة واللون، د.أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.
- منهاج البلغاء، حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٦م.
- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، للسمهودي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٤١٩هـ.